



المفارقة من جدلية التأسيس إلى جمالية الاستخدام

The paradox from the dialectic of foundation to the aesthetics of use

بلخيري أكرم

جامعة محمد البشير الابراهيمي برج بوعرييج

akram.belkhiri_1@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام:/...../..... تاريخ القبول:/...../.....

● الملخص:

يعد مصطلح المفارقة من المفاهيم الموهلة في القدم فالمفارقات ليست اكتشافاً حديثاً أو معاصر، بل هي ترتبط بوجود الإنسان في العالم فأسطورة الخلق نفسها هي قصة مفارقات تتضمن علاقة الإنسان بالطبيعة، وبنفسه، وبالأخر، وبالحرية، وبالإله، والمقدس هو نفسه مفارقة فنحن لا ندرك المقدس إلا من خلال إسقاطات الدنيوي. وكلام الله الذي تكلم به في كتبه المقدسة هو لغة بشرية. والمسيح يتضمن وحدة الإلهي والإنساني، وأن الحياة تولد من رحم الموت ... وهكذا نجد أن المفارقة هي القبول باجتماع النقيضين، ولذلك قيل عنها إنها تناقض ظاهري، أو تناقض عابر أو خادع.

المفارقة هي إيمان بإثراء هذا الوجود، وبخصوصية التجربة البشرية والوثوق بنسبية القيم والمعايير، والانفتاح اللامحدود على الآخر وعلى الحياة، وانعتاق من أسر الرؤى الدوجمائية، هي أسلوب لغوي فني جمالي صار تقليداً بين جمهور الشعراء ذلك أنها ظاهرة فنية يستخدمها الشاعر المعاصر للتعبير عن المعاني والألفاظ المتناقضة ليفصح عما يدور في ذهنه ويعبر عما يريد اتصاله للمتلقى.

الكلمات المفتاحية: المفارقة، التناقض، الفلسفة، الجدل، الفن

Abstract:

The term paradox is one of the most ancient concepts. Paradoxes are not a modern or contemporary discovery. Rather, they are related to man's existence in the world. The creation myth itself is a story of paradoxes that includes man's relationship with nature, with himself, with others, with freedom, and with God. The sacred is itself a paradox. We only perceive the sacred. Through worldly projections. The words of God that He spoke in His holy books are human language. Christ includes the unity of the divine and the human, and that life is born from the womb of death... Thus we find that the paradox is the acceptance of the meeting of the two opposites, and therefore it is said about it that it is an apparent contradiction, or a passing or deceptive contradiction.

Paradox is a belief in the enrichment of this existence, the fertility of human experience, confidence in the relativity of values and standards, unlimited openness to the other and to life, and liberation from the captivity of dogmatic visions. It is an artistic, aesthetic linguistic style that has become a tradition among the masses of poets, because it is an artistic phenomenon used by the contemporary poet to express contradictory meanings and words. To express what is on his mind and express what he wants to convey to the recipient.

Keywords: paradox, contradiction, philosophy, controversy, art

● مقدمة:

منذ البدايات الأولى لبزوغ الفكري الفلسفي لدى اليونان القدامى احتدم الصراع بين الفلاسفة حول ثنائيات مختلفة ومتناقضة من قبيل الوجود والعدم والثبات والحركة وغيرها، فتشكلت مجموعة من البديهيات والحجج العقلية والتي أصبحت فيما بعد تعرف بالمنطق، الذي بنى عليه الإنسان اقتراناته في الحياة، فلا يحيد عما يخالف تلك البديهيات. ورغم عمق المنطق واتزان بنيانه إلا أن الإنسان وجد نفسه في كثير من الحالات عاجزا ومرتبكا، بسبب ما تحمله بعض العبارات من تناقضات، أطلق عليها العقل اليوناني اسم المفارقات (Paradox) في إشارة منه إلى أنها عبارات استعصت على العقل في ترتيبها وتصنيفها، فهي مجموعة من الكلمات والعبارات التي تحمل وجهين متضادين معا في آن واحد، وفي المقابل لا تحتمل إجابة واحدة صحيحة وصريحة.

لقد ارتبط وجود المفارقات بوجود الإنسان البدئي حينما عجز على أن يقدم تفسيرات للظواهر فلجأ إلى تأليف الأساطير والخرافات التي مزج فيها بين الواقع والخيال وبين الحكايات المتوارثة فتصور الآلهة متعددة ومشابهة للبشر تتزاوج وتتصارع من أجل الحكم والبقاء، من هنا بدأ الإنسان يدرك تلك التناقضات التي كان يقع فيها دون قصد أحيانا وبقصد أحيانا آخر

عُرفت المفارقات منذ العصور القديمة بالتحديد إلى بدايات الحضارات البشرية الأولى التي قامت في مناطق التي تعرف ببلاد ما بين النهرين، وكذلك في المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وقد حظيت المفارقات باهتمام واسعاً بين العلماء والشعراء والأدباء، وخاصة بين الفلاسفة الذين سعوا إلى فهم أسرار الكون وفق قوانين العقل والمنطق. ولعلنا نذكر هنا أبرز الشعوب التي اهتمت بالمفارقات، الإغريق القدماء، حيث ظهر قبل سقراط، عدد من الشخصيات الفلسفية الهامة في التاريخ اليوناني، والتي لعبت دورا مهما في تطوير الفلسفة اليونانية والمنطقي، نجد من هؤلاء زينون الإيلي وهيراقليطس اللذان طرحا العديد من المفارقات الفلسفية التي أثارت الجدل والتساؤل، وخرجت عما كان يعتبر بداهيات عقلية ومنطقية في ذلك الوقت. ومن المفارقات التي اشتهرت في ذلك الوقت مفارقات زينون المتعلقة بانعدام الحركة باعتبارها من أقدم الأمثلة التي وصلت إلينا، وهذه المفارقة بالذات هي التي جعلت زينون يُعد من المؤسسين الأوائل لعلم الجدل والمناظرة، لما حملته مفارقاته من تعقيد وعمق في الطرح.

إن المفارقات ظاهرة فكرية معقدة تتحدى الفهم التقليدي وتثير التساؤلات حول المنطق والعقلانية. تظهر المفارقات في العديد من المجالات، مثل الفلسفة، الرياضيات، الأدب وحتى الحياة اليومية، حيث تجسد تناقضات ظاهرية أو حقائق تبدو مستحيلة عند تحليلها بعمق. تمثل المفارقات فرصة لإعادة النظر في القواعد والتصورات التي تحكم تفكيرنا، مما يجعلها أداة قوية لاختبار حدود الفهم البشري. لذلك سنحاول من خلال هذه الورقة، أن نجيب على السؤال ماهي المفارقة وكيف نشأ؟ ثم كيف تصبح المفارقة أسلوبا جماليا؟

1. تعريف المفارقة:

المفارقة من المصطلحات اليوناني التي تتألف من مقطعين هما، Para ويعني المخالف أو الضد doxa ويعني الرأي وبالجمع بين المطلقين يصبح معناه ما يخالف الرأي الشائع، وتم استعمال هذا المصطلح في اللغة العربية الحديثة للدلالة على الآراء المخالفة للمعتقدات المألوفة¹

كما يحمل المصطلح الأول Para معنى "وراء" أو "أبعد من" و "Doxa" بمعنى "ظن" أو "اعتقاد" ليصبح معنى Paradox هو الابتعاد عن الاعتقاد.

1.1 في اللغة العربية :

اسم مفعول من " فارق " وجذرها ثلاثي " فرق " بفتح الفاء والراء والقاف، ومصدرها " فرق " بفتح الفاء وسكون الراء، والفرق في اللغة بخلاف الجمع، وتفريق ما بين الشيئين، " والفرق "أيضا موضع الفرق من الرأس، ومفرق الطريق متشعبه الذي يتشعب طريق آخر منه ويقال :فارق الشيء مفارقة وافترقا أي باينه²

وفي القرآن الكريم فقد وردت لفظة المفارقة في العديد من السور القرآنية: فنجدها في سورة الطلاق في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [سورة الطلاق: 2]³ فهنا يقصد بكلمة فارقوهن بمعروف أي يجب تركهم حتى تكتمل عدتهن.

وقد أطلق هذا المصطلح أيضاً على الرأي الغريب الذي لا يعتقده صاحبه، ولكنه يدافع عنه أمام الناس لحملهم على الإعجاب به، والمفارق في الفلسفة العربية القديمة هو الجوهر الفرد المجرد عن المادة القائم بذاته.

المفارقة هي حالة أو فكرة تتضمن تناقضاً ظاهراً أو تعارضاً بين أمرين يبدو كل منهما صحيحاً ومنطقياً عند النظر إليه بمفرده لكن عند الجمع بينهما ينتج وضع غير متوقع أو يصعب قبوله عقلياً.

تُستخدم المفارقة في مجالات متعددة مثل الفلسفة والمنطق والأدب والرياضيات، وقد تكون وسيلة لعرض مشكلة معقدة، أو لتبسيط الضوء على خلل منطقي في تفكيرنا. وغالباً ما تدفع المفارقة إلى إعادة تقييم المبادئ التي نعتقد بصحتها، إذ تبدو أحياناً صحيحة وخاطئة في الوقت نفسه، مما يخلق توترًا فكريًا يدعو إلى التأمل والبحث.

أما من الجهة المنطقية، فالمفارقة هي حجة يتم بها إثبات صدقها وكذبها في الوقت نفسه، أو هي استدلال عقلي يبدأ بمقدمات صادقة ومقبولة، وينتهي بنتيجة مناقضة تماماً لما كنا قد اتخذناه نقطة بدء، وعلى هذا ينبغي التمييز منطقياً بين مفهومي "المفارقة"

¹ مراد وهبه، المعجم الفلسفي، مادة (مفارقة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2016، ص 697

² خالد سليمان، كتاب المفارقة والأدب، دار الشروق لنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1999، ص21

³ القرآن الكريم، سورة الطلاق، الآية 2

و"المغالطة" التي تعتبر استدلال فاسد يقوم على الخداع ويهدف إلى إرباك الخصم والتمويه عليه وتقديم الكاذب على أنه صادق، أي أنها تنطوي على خطأ متعمد، ولذا تُسمى السفسطة Sophism¹

1.2. المفارقة في الاصطلاح :

يرى مجموعة من الباحثين والذين نجد منهم دي سي ميويك، وفردريك شليجل، على أن الحقبة التي شهدت أعظم الفلاسفة هي نفسها الحقبة التي شهدت ميلاد المفارقة (Paradox) كأسلوب جدلي مراوغا، وتعد مؤلفات أرسطو هي المصدر الوحيد لمعرفتنا بالمفارقات الحركية، أما مخطوطات زينون الأصلية فقد فقدت تماما، وأكد ميويك (Mueck) في كتابه بأن هذا المفهوم لم يظهر في اللغة الإنجليزية حتى عام 1502 م، ولم يتم استخدامه بشكل رسمي إلى غاية بداية القرن الثامن عشر.

لقد كان زينون الإيلي أول من استخدم معنى المفارقة في برهانه عن انعدام الحركة داعما في ذلك رأي أستاذه بارمنيدس بمفارقتها المذكورة في العديد من كتب الفلسفة ونقصد مفارقة أخيل والسلحفاة وباقي المفارقات التسعة الأخرى التي وظفها زينون لإثبات انعدام الحركة.

استخدم سقراط المفارقة بعد زينون في منهجه التهكم والتوليد الذي سعى من خلاله إلى كشف تناقض السفسطائيين وتلاعبهم بالألفاظ وكانت طريقته فب فضحهم بأن يجمع الناس في مكان معين على اختلاف ثقافتهم واتجاهاتهم، ويقوم بمناقشتهم وفق منطقا فلسفيا حتى يوصلهم إلى نقطة تجعل كل واحد يفقد الثقة في معرفته للموضوع الذي يحاور فيه.

أصبحت المفارقة تقليدا جرى في أوساط فلاسفة أثينا بعد زينون الإيلي فها هو أفلاطون يستعين بالمفارقة ليثبت أن العالم الحسي عالم الوهم والظلال وأن عالم المثل هو عالم الحقائق الخالدة، والمفارقة عند أفلاطون هي طريقة معينة في المحاور لا استدراج محاوريه حتى يصلوا إلى الاعتراف بجهلهم².

يعد أرسطو المفارقة نوعا من انواع البلاغة التي تقوم على اساس التناقض، حيث يظهر التناقض من خلال استخدام اسلوب المدح في صورة الذم، أو الذم في صورة المدح، ومن شدة التباين والتضاد بين المعنيين يتولد تأثير قوي يكشف لنا جوهر المفارقة ويبرزها بشكل واضح.

للمفارقة عدة تعريفات، من بينها أنها لعبة لغوية ذكية تدور بين طرفين، هما صانع المفارقة وقارئها، حيث يقوم صانع المفارقة بتقديم النص بشكل يثير انتباه القارئ ويجره الى رفض المعنى الظاهري المباشر للنص، لصالح معنى آخر خفي يكون في الغالب هو المعنى

¹ ألكسندر اغيتمانوف، علم المنطق، دار التقدم، موسكو، 1989، ص 297

² نبيلة إبراهيم، كتاب فن القص في النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة، الناشر مكتبة الغريب، بالمنطقة الصناعية المحاور السابعة،

العكسي أو الضد، وخلال هذه العملية يحدث تصادم داخل اللغة نفسها، فتتصارع المعاني وتتداخل، مما يجعل القارئ في حالة من التوتر وعدم الراحة حتى يتمكن في النهاية من اكتشاف المعنى الذي يقتنع به ويشعر بالاستقرار عنده¹.

يرى شليجل أنه لا يمكن الوصول إلى المفارقة إلا عندما تصبح الأحداث أو الأشخاص أو حتى الحياة كلها مفهومة وقابلة لأن تُنظر إليها على أنها مجرد لعبة، فالحياة في نظره مليئة بالتناقضات والتعارضات التي يصعب جمعها أو احتواؤها في تصور موحد أو رؤية شاملة، ولا يمكن الإمساك بها بشكل كلي إلا عندما ندرك في النهاية أن المفارقة ليست مجرد حالة عابرة، بل هي الجوهر الحقيقي للحياة نفسها².

يرى صاموئيل جونسون أن المفارقة هي أسلوب من أساليب التعبير يكون فيه المعنى مخالفا أو مضادا للظاهر، ومن خلال هذا التعريف يتبين لنا أن جونسون اعتبر المفارقة وسيلة تعبيرية تقوم على خلق تناقض بين العبارة المكتوبة والمعنى الذي يقصده الكاتب، حيث لا يكون المقصود هو ما يبدو في ظاهر الكلام بل معنى آخر يختلف عنه.

ومن خلال هذه التعريفات المختلفة للمفارقة يمكننا أن نستخلص مجموعة من النقاط المهمة كما يلي:

- تقوم بنية المفارقة على لغة مراوغة، فهي تقول ما لا يتوقعه القارئ من النظرة الأولى، وتتجاوز بذلك قدراته حين يتوقف عند حدود المعنى السطحي.
- المفارقة تثير الدهشة لدى القارئ، وقد تدفعه إلى الشعور بالاستفزاز أو الحيرة أو التردد، حتى يصل في النهاية إلى موقف يتراوح بين الإعجاب أو الرفض.
- كل المفارقات تعتمد بالضرورة على وجود تناقض أو تعارض في مضمونها، وهو عنصر يقصده صانع المفارقة لكي يخلق لدى القارئ حالة من الاضطراب وعدم اليقين.
- لا يمكن انتظار استجابة واحدة أو متماثلة من جميع القراء عند تلقي المفارقة، فالمعاني التي تحملها قابلة للتعدد والانفتاح، وهي دائما تقول أقل مما يمكن في ظاهرها لكنها تحمل في داخلها أقصى ما يمكن من الدلالات.

¹ ناصر شبانة، كتاب المفارقة في الشعر العربي الحديث أمل دنقل، سعدي يوسف، محمود درويش نموذجاً، دار الفارس للنشر

والتوزيع، لبنان، ص46

² نوال بن صالح، جماليات المفارقة في الشعر العربي المعاصر دراسة نقدية في تجربة محمود درويش، الأكاديميون للنشر والتوزيع، د.ت،

2. العنوان الرئيسي الثاني:

أ- من أشهر المفارقات مفارقة هيرقليطس

وملخصها وهو أن جميع الأشياء تنشأ بفعل الصراع القائم بينها، فخلف مظاهر الانسجام والتناسق التي تبدو عليها الأشياء، هناك تغير دائم لا يتوقف، فلا شيء يبقى على حاله أبداً. إذ إنّ صراعاً مستمراً يدور بين الأضداد في معركة شديدة، ومع ذلك فإن هذه الأضداد تمثل الشيء نفسه في الوقت ذاته¹

في تصور هيرقليطس، إذا تمعنا جيداً في رؤيته للعالم، نجده لا يرى الوجود كحالة ثابتة أو كيان ساكن، بل يعتبره ميداناً دائماً الحركة تسيّره صراعات مستمرة بين الأضداد. فالأشياء لا تثبت على حال، وكل عنصر ينطوي على إمكانية تحوّله إلى نقيضه، فالماء في لحظة ما قد يتحول إلى نار، والنار بدورها يمكن أن تعود لتصبح ماءً،² وهكذا في سلسلة لا تنتهي من التحولات والتناقضات، هذا التصور يعني أن الأشياء لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال أضدادها، فلا يمكننا إدراك معنى الحياة إلا بوجود الموت، ولا يمكننا تصور النهار إلا إذا كان الليل موجوداً، فكل شيء يُعرف من خلال ما يناقضه ويعارضه، وهذا التباين هو الذي يمنح الأشياء معناها وحدودها.

وقد تبوّى هيغل لاحقاً هذا التصور ليشكّل به لبّ فلسفته الخاصة بالوعي، إذ يرى أن الوعي يتكوّن من خلال عملية جدلية تجمع بين الوجود والعدم، أو بمعنى آخر: يقوم على التفاعل المستمر بين الظاهرة ونقيضها، بحيث لا يتحقق الفهم الحقيقي للأشياء إلا عبر هذا التداخل بين المتناقضات.

ب- المفارقة عند الفيثاغوريين

تناول الفيثاغوريون في أطروحاتهم المتعلقة بعلم الكونيات من زاوية جمالية مسألتين أساسيتين تثيران قدراً كبيراً من المفارقة والتأمل العميق، وهاتان المسألتان هما مسألة التناغم ومسألة الانسجام.³ فقد اعتبروا أن التناغم يتحقق من خلال توافق الأضداد وتناسبها مع بعضها البعض، بمعنى أن الأشياء المتعارضة تتلاقى وتتآلف بطريقة تخلق حالة من الاتزان، بينما يتمثل الانسجام في التوافق الداخلي بين مكونات الشيء نفسه، حيث تتناسب أجزاؤه بشكل متناغم يكسبه الجمال والكمال.

وقد تجسدت هذه الرؤية بوضوح في دراساتهم التي شملت الأعداد والأشكال الهندسية والحركات والأصوات، حيث انبهروا بالعلاقات المتقابلة والعجيبة التي تربط بين هذه العناصر المختلفة، وراحوا يتأملون في القوانين الثابتة التي تحكمها، مما جعلهم يوجهون أنظارهم نحو النظام الدقيق والتناسب العميق الذي يسود العالم من حولهم، ومن خلال هذا التأمل، توصلوا إلى نتيجة مذهلة وهي أن العالم ليس مجرد مادة مكونة من عناصر كالتراب أو الماء أو النار، بل هو في جوهره أشبه بعالم الأعداد، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين

¹ أنتوني جوتليب، حلم العقل، تر محمد طلبة نصار، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة (القاهرة)، ط 1، 2015م ص 67

² عبد الرحمان بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 03، دت، ص 140

³ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص 38

قالوا إن مبادئ الأعداد ليست فقط أساس الأشياء، وإنما الكائنات والموجودات في حقيقتها أعداد، وإن العالم ما هو إلا عدد ونغم، أي أن كل ما في الكون يخضع لنظام عددي وتناغم موسيقي.

كما توصلوا إلى فهم جديد للأرقام من خلال المفهوم المزدوج للمحدود واللامحدود، فرأوا أن هذا التقابل له أثر بالغ في تصنيف الأعداد، فاللامحدود عندهم يتجسد في الأعداد الزوجية، وربما يؤدي إلى نشأتها، أما المحدود فيرتبط بالأعداد الفردية بنفس الطريقة، ومن خلال تفاعل هذين النقيضين، تتكون الأرقام ويتشكل عالم العدد، حيث اعتبروا أن جميع الأعداد الأخرى تنبثق من الرقم واحد، أي أن الأصل في كل شيء هو الوحدة التي تتفرع عنها الأضداد.

ومن هذا المنطلق، أكد الفيثاغوريون أن الجمال في الكون لا ينبع من التشابه أو الوحدة فقط، بل يتجلى من خلال تزواج الأضداد وتفاعلها مع بعضها البعض، وهو ما يمثل جوهر المفارقة، فهم أول من أشار إلى هذا التصور الذي اعتُبر لاحقاً حجر الزاوية في بناء النظريات الجمالية، سواء في الفنون أو في الأدب، حيث أصبح الجمع بين الأضداد وتوظيف المفارقة من الأسس التي تمنح النصوص عمقها الجمالي وقيمتها الفنية.

ج- المفارقة عند السفسطائيين:

يرى بروتاغوراس، الفيلسوف السفسطائي الشهير، أن الإنسان هو المقياس لكل شيء، فهو الذي يحدد وجود الأشياء وعدمها. فالإنسان، وفقاً لبروتاغوراس، هو الذي يمنح للأشياء معناها ويقرر حقيقتها من عدمها؛ فما يعتبره الإنسان موجوداً يكون موجوداً بالفعل، وما لا يعترف به أو لا يدركه يعد غير موجود، وهذه النظرة التي تضع الإنسان في مركز الحكم على الأشياء تمثل نقطة التحول نحو الذاتية التي برزت بوضوح عند السفسطائيين.¹

ومع بروز هذه النزعة الذاتية عندهم، بدأت المفارقة تأخذ عند السفسطائيين طابعاً مختلفاً، فقد أصبحت بالنسبة لهم نوعاً من المهارة البلاغية التي تعتمد على التلاعب بالألفاظ، حيث يستطيع السفسطائي أن يقدم الحجة التي تدعم فكرة معينة، ثم بنفس المنطق والقدرة يقلب الأمور ليدافع عن نقيض تلك الفكرة، وكأن الحقيقة يمكن تشكيلها بحسب مهارة المتكلم لا بحسب واقع الأشياء، وهذا التلاعب بالأقوال، في جوهره، ليس سعيًا للوصول إلى الحقيقة بقدر ما هو شكل من أشكال الخداع العقلي، حيث يتم إلباس الجهل لباس المعرفة، وتقديم الكذب على أنه صدق، والترويج للباطل في صورة الحق، في مشهد يختلط فيه الوهم بالحقيقة.

وفي مرحلة معينة من تطور الحوار الفلسفي، لم يعد الهدف من النقاش البحث عن الحقيقة أو الوصول إلى قناعة عقلية، بل أصبح الهدف الأساسي لكثير من المتحاورين هو التفوق على الخصم وإثبات الانتصار عليه أمام الآخرين، فقد أصبحت الغاية هي إظهار الذكاء وقوة البيان لا الوصول إلى الحق ولهذا السبب، لجأ العديد من المتناظرين إلى الحجاج الشخصي، أي إلى مهاجمة الشخص بدلاً من مناقشة أفكاره، وسعوا إلى تشويه صورة الخصم وهدم أطروحته باستخدام أساليب خطائية تعتمد على المغالطات والتلاعب الكلامي بدلاً من الحجج العقلية والبراهين المنطقية.

¹ محمد عبد الله الشرقاوي، مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، دار الجبل، بيروت، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط2 1990م، ص 93

د- المفارقة عند الروائيين

قدمت الفلسفة الرواقية، التي سادت الفكر اليوناني في القرن الرابع قبل الميلاد وانتقلت بعد ذلك لتؤثر في العقلية الرومانية، تصورا خاصا للمفارقة عُرف باسم المفارقات الرواقية، وتقوم هذه المفارقات على آراء أخلاقية مطلقة، مثل اعتقادهم أن الحكيم لا يخطئ، ولا يتأثر بالاضطراب أو الخوف أو الرجاء أو الحزن أو الندم، بل يسمو بنفسه فوق جميع هذه الانفعالات، وكان من الشائع في هذا الفكر أن الإنسان يجب أن يتحرر من الأهواء وألا يكون خاضعا لمشاعر الحزن أو الفرح.

لخص الفيلسوف الروماني سينيكا الأصغر مذهب الروائيين بقوله إن القدر يقود أصحاب الإرادة بينما يجر من لا يملكونها، وهذه هي جوهر المفارقة لديهم، إذ إنهم بهذا الفكر يسعون إلى تقديم صورة للإنسان المثالي الذي يتمتع بحرية الاختيار ويوجه أفعاله في مجتمع حر لا تخضع إرادته لسلطة تملوه. غير أن هذه الصورة تبقى مستحيلة، لأنها في النهاية تخضع لقوانين الطبيعة الصارمة التي لا يمكن تجاوزها.¹

3. جمالية المفارقة في حقل الأدب:

ساهمت جهود مجموعة من العلماء والمفكرين، ومن بينهم فريدريك شليجل الذي طور فكرة المفارقة الكونية أو مفارقة الكون التي يكون الإنسان فيها ضحية، في تشكيل مفهوم المفارقة بشكل واضح، فقد جعل شليجل من المفارقة حالة منفتحة تقوم على الجدل والتضاد، وقدمها في إطارها الرومانسي الذي يرى أن الطبيعة ليست مجرد وجود ساكن، بل هي ضرورة مستمرة، فحسب هذا التصور الطبيعة تخضع لعملية جدلية دائمة، قانونها يقوم على الخلق المستمر والإفناء المتواصل في الوقت نفسه، والإنسان ليس سوى كائن يخضع لهذا القانون الذي يجمع بين الخلق والفناء².

أدت الدراسات الكثيرة التي تناولت موضوع المفارقة خلال القرنين الأخيرين إلى إحداث تحول جذري في دلالة هذا المصطلح، فلم تعد المفارقة مجرد وسيلة للتعبير عن معنى أو موقف معين، بل أصبحت منهجا قائما بذاته يمتلك جميع خصائص المنهجية العلمية، ففيما كان يُنظر إلى المفارقة قبل القرن التاسع عشر على أنها مقصودة ويُعتمد عليها لتحقيق غايات معينة في اللغة مثل المدح أو الذم، أصبح من الممكن فيما بعد اعتبار المفارقة أمرا قد يكون غير مقصود، ويمكن ملاحظته في سياق الأحداث ومع ذلك، تبقى المفارقات التي ترتبط بالظروف والقدر بعيدة عن تدخل الإنسان ولا يمكن اعتباره صانعها بإرادته أو بجهد الواعي، لأنها ليست نتاج عمل مقصود.

3. أنواع المفارقة في الأدب:

قُسمت المفارقة في الدراسات الحديثة إلى أنواع عديدة، مما يصعب على الدارس الإحاطة بها جميعا، فقد قسّم النقاد المفارقة إلى أشكال وأنواع عدة، وقد جاءت هذه الأنواع مختلفة من باحث إلى آخر بحسب الاعتبارات التي أخذت بالحسبان أثناء عملية التقسيم فهناك من قسّمها بحسب أساليبها، وهناك من قسّمها معتمدا على درجة شدتها، والبعض الآخر اعتمد على توقعها ومثلاتها في النص

¹ أحمد حسن الزيات باشا، الرواية المسرحية في التاريخ والفن، مجلة الرسالة، العدد 62، ص 2

² خالد سليمان، كتاب المفارقة والأدب، المرجع السابق، ص 35

كما عني آخرون بموضوعها واهتمّ البعض الآخر بتأثيرها، غير أن ميويك يضع لها قسمان رئيسين هما المفارقة اللفظية ومفارقة الموقف ففي المفارقة اللفظية نجد نمطين، النمط الأول: أسلوب "الإبراز" أما الثاني فهو أسلوب النقش الغائر في النوع الثاني نجد أنماطا خمسة هي:

—مفارقة التنافر البسيط/مفارقة الأحداث/المفارقة الدرامية/مفارقة خداع النفس/مفارقة الورطة

كما قسّم المفارقة من حيث درجاتها إلى ثلاث درجات هي: المفارقة الصريحة/المفارقة الخفية/المفارقة الخاصة.

وقسمها من حيث طرائقها وأساليبها إلى أربعة أقسام: المفارقة اللاشخصية/مفارقة الاستخفاف بالذات/المفارقة الساذجة/المفارقة المسرحية.

وإلى جانب هذه الأنماط، تتردد في الدراسات المعنية بالموضوع، تسميات أخرى عديدة نذكر منها: مفارقة سوفوكليس/المفارقة الوجدانية/المفارقة الرومانسية/مفارقة القدر/مفارقة التواضع الزائف/المفارقة السقراطية /المفارقة البلاغية/المفارقة الهزلية وأنماط أخرى تتداخل مع هذه الأنواع، أو تندرج تحتها.

إذا كان المعنيان الظاهر والباطن في المفارقة اللفظية يكونان في مواجهة مباشرة، فإنهما في المفارقة السياقية يتطلبان خفاء وعمقا في البحث عن طريقي المفارقة داخل بنية المثل، كما تتطلب المفارقة السياقية البحث في قصة المثل وسياقه الذي قيل فيه وربط هذا كله بنص المثل.

تتجاوز المفارقة السياقية أو الموقفية حدود المراوغة اللفظية لتشمل الموقف برمته فهي تمتلك القدرة على استيعاب كل ما يقع في منطقة نفوذها من المواقف والأحوال والأطر الزمانية والمكانية.

تنوع أشكال المفارقة السياقية في الأمثال العربية، فبينما تغيب المفارقة الرومانسية، تحضر مفارقات أخرى بشكل واضح كالمفارقة الدرامية، ومفارقة الأحداث والمفارقة السقراطية، هذه الأخيرة بالرغم من نسبتها للفيلسوف اليوناني سقراط باعتباره أنه كان يحاور بطريقة يتظاهر فيها بالتجاهل حتى يوقع خصومه في فخاخ أخطائهم، فيعترفون بجهلهم، إلا أننا وجدنا المفارقة السقراطية حاضرة في نماذج كثيرة من الأمثال العربية

أما المفارقة الدرامية فتكاد تكون جل أمثال المفارقة مبنية على أساس درامي حيث تتوافر على الصراع والتوتر وعنصري الزمان والمكان والشخصية في شبه حبكة سردية قصصية فيسكت المثل عن القصة ليستدعي عنوانها أي نص المثل في سياق المضرب أو الموقف المشابه لقصة المثل الأولى.

وإذا كانت الشخصية في المفارقة الدرامية تجهل حقيقة الموقف المفارق الذي وضعت فيه أو وضعت نفسها فيه، بينما جمهور المراقبين يدرك المفارقة، فإن الشخصية في مفارقة الأحداث تجهل حقيقة المفارقة مثلها مثل الجمهور ولا تتولد المفارقة إلا لحظة اكتشاف المفارقة من طرف الضحية والجمهور وتتخذ المفارقات السياقية آليات عدة لتنفيذها ككسر أفق انتظار المتلقي والعنصر الكوميدي والمفاجأة.

● خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية يمكن الوصول إلى مجموعة من النقاط المهمة حول المفارقة، من أبرزها:

إن الجدل يمثل سمة فكرية أصيلة نشأت في الحضارة اليونانية، وكان محركها الأساسي هو الصراع بين الثنائيات المتضادة. وقد اعتُبرت المفارقة في الفكر اليوناني واحدة من الاستراتيجيات الدفاعية التي استخدمت في الحوارات والنقاشات، كما كانت وسيلة لغوية فعالة تهدف إلى إرباك الخصم وإفحامه.

في العصور القديمة كان من الممكن التمييز بوضوح بين الأدب والفلسفة، حيث كان لكل منهما مجاله وحدوده. لكن مع تطور الفكر الحديث وتداخل التخصصات أصبح من الصعب بل من المستحيل الفصل التام بينهما، إذ أصبح الأدب والفلسفة يتداخلان في كثير من القضايا والمفاهيم.

إن الثقافة اليونانية القديمة قامت على مبدأ المفارقة باعتبارها جزءاً أساسياً من رؤيتهم للعالم، فقد برزت المفارقة في الميتافيزيقا الأفلاطونية من خلال تعارض الأشياء مع مثلها العليا، وظهرت في الميتافيزيقا الأرسطية من خلال التناقض بين الموجودات وماهيتها، وكان للمكانة الرفيعة التي احتلها كل من أفلاطون وأرسطو في الفكر اليوناني أثر كبير في ترسيخ المفارقة كعنصر مركزي في بناء الفلسفة اليونانية وصياغتها في شكلها الناضج، وقد كان اهتمامهما العميق بالمفارقة ضمن مشروعهما الفلسفيين سبباً رئيسياً في استمرار دراسة هذا المفهوم إلى يومنا هذا وجعله موضوعاً مهماً للنقاش والتحليل.

الجدل الإغريقي كان مبنياً في جوهره على المفارقة، إذ يكاد لا يوجد فيلسوف يوناني إلا وقد لجأ إليها في محاوراته ونقاشاته، مع اختلاف طريقة توظيفها من فيلسوف إلى آخر. فقد تباينت أساليبهم في استخدامها بحسب طبيعة أفكارهم وأهدافهم الجدلية. لقد نشأت المفارقة في بداياتها الأولى عند الفلاسفة اليونانيين كسلوك عملي اعتمدته مجموعة من الناس، ثم تطورت لاحقاً لتأخذ شكلاً لغوياً وأسلوبياً حجاجياً فعالاً يُستخدم في الجدل بهدف دفع العقول إلى القبول والتسليم بما يُعرض من أفكار وأطروحات. وقد استغل الفلاسفة في ذلك الصورة الذهنية السطحية التي تخلقها العبارات الرمزية أو التراكيب اللفظية في أذهان المتلقين أثناء الحوار، من أجل الإيقاع بهم في شرك المفارقة. وفي بعض الأحيان، كان الغرض من استخدام المفارقة هو المغالطة والمناورة والتلاعب بعقول الخصوم والجمهور، بهدف تحقيق الانتصار في الجدل وإفحام الطرف الآخر. وقد ساعدتهم على ذلك براعتهم الفائقة وقدرتهم على النفاذ إلى أعماق التفكير البشري وكشف أسسه وتصويرها بهذا العمق الفكري المتميز. ولم تكن المفارقة في بداياتها مرتبطة بالدراما أو الشعر أو الأدب أو المسرح، بل ظل نطاق استخدامها محدوداً إلى أن جاء أرسطو، الذي وسع مفهومها وأدخلها إلى هذه المجالات المختلفة، ومنذ ذلك الحين واصلت المفارقة تطورها المستمر حتى وجدت لنفسها مساحة أوسع وأهمية أكبر، خاصة بعد أن برزت كمصطلح أساسي في الأدب الحديث عند الغرب في عصر النهضة.

● قائمة المراجع:

1. القرآن الكريم، سورة الطلاق، الآية 2
2. أحمد حسن الزيات باشا، الرواية المسرحية في التاريخ والفن، مجلة الرسالة، العدد 62 ،
3. ألكسندر اغيتمانوف، علم المنطق، دار التقدم، موسكو، 1989،
4. أنتوني جوتليب، حلم العقل، تر محمد طلبة نصار، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة) القاهرة، ط1، 2015م
5. خالد سليمان، كتاب المفارقة والأدب، دار الشروق لنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 1999
6. عبد الرحمان بدوي، ربيع الفكر اليوناني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 03 ، دت
7. محمد عبدالله الشرفاوي، مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، دار الجبل، بيروت، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط02 1990م
8. مراد وهبه، المعجم الفلسفي، مادة (مفارقة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2016
9. ناصر شبانة، كتاب المفارقة في الشعر العربي الحديث أمل دنقل، سعدي يوسف، محمود درويش نموذجاً، دار الفارس للنشر والتوزيع، لبنان،
10. نبيلة إبراهيم، كتاب فن القص في النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة، الناشر مكتبة الغريب، بالمنطقة الصناعية المحاوره السابعة،
11. نوال بن صالح، جماليات المفارقة في الشعر العربي المعاصر دراسة نقدية في تجربة محمود درويش، الأكاديميون للنشر والتوزيع، د.ت
12. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية